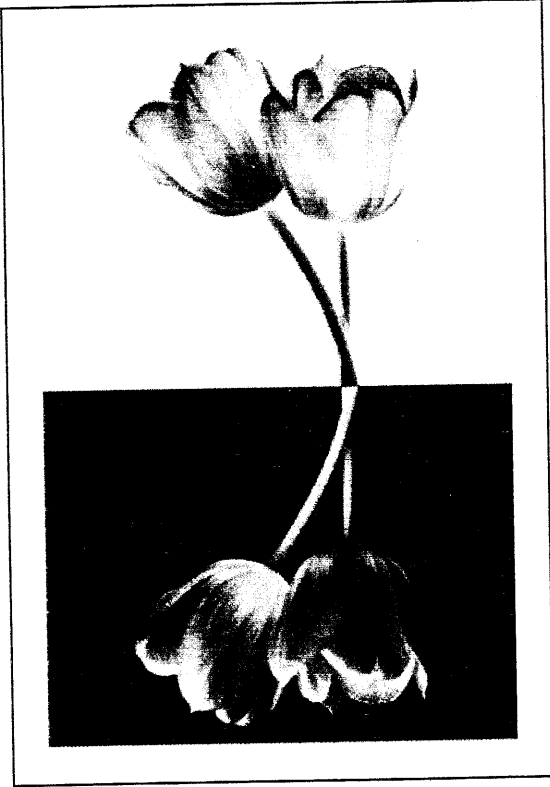


عبد الناصر صالح

مدائن الحضور والغياب



شعريات فلسطينية

شعريات فلسطينية

عبد الناصر صالح

مدائن الحضور والغياب

بيد الشجر
2009

شعريات فلسطينية

سلسلة غير دورية تصدر عن «بيت الشعر الفلسطيني» في رام الله، وتُعنَى بتقديم حوار شعري فلسطينية في الوطن والشنات، وتهدف إلى إفساح المجال الأوسع أمام هذه التجارب التي كانت تحفَّتْ أوائل خطواتها، لتستمرَّ في عطاها الشعري نحو مزيد من الاقتراح والتجريب والإبداع.

بيت الشعر الفلسطيني

«بيت الشعر» في فلسطين وسيلة للمثقفين الفلسطينيين لتعميق مشروعهم الإبداعي، وتكريس دورهم في تأكيد الحرية وبنائها، ورغبتهم في الإضاءة على جهد الشعر الفلسطيني في إغناء الحياة وحراسة الحلم. إن تأسيس «بيت الشعر» في فلسطين لا يعني على الإطلاق اقتراحاً للتصنيف أو الكتابة، ولا يحدّد اتجاهًا بعينه، بقدر ما يؤسس لفضاء الاختلاف والجدل والاقتراح والتجريب، والبحث عما هو أعمق في تجاربهم، وهو محاولة من شعراء ومبدعي فلسطين لتجاوز حاجز الجغرافيا والسياسة الذي فرض تقسيماته على واقعهم نحو وحدة المشروع الثقافي الفلسطيني؛ الوحدة المبنية على الجدل والحوار والتواصل وتثبيت جسورهم مع عمقهم العربي والإنساني.

صدر للشاعر

- * الفارس الذي قُتل قبل المباراة (١٩٨٠).
- * داخل اللحظة الحاسمة (١٩٨١).
- * خارطة للفرح (١٩٨٦).
- * المجد ينحني لكم (١٩٨٩).
- * نشيد البحر - مطولة شعرية (١٩٩٠).
- * فاكهة الندم (١٩٩٩).

مدائن الحضور والغياب

صدر للشاعر

- * الفارس الذي قُتل قبل المبارزة (١٩٨٠).
- * داخل اللحظة الحاسمة (١٩٨١).
- * خارطة للفرح (١٩٨٦).
- * المجد ينحني لكم (١٩٨٩).
- * نشيد البحر - مطولة شعرية (١٩٩٠).
- * فاكهة الندم (١٩٩٩).

مدائن الحضور والغياب

عبد الناصر صالح
"مدائن الحضور والغياب"

الطبعة الأولى (٢٠٠٩)
جميع الحقوق محفوظة

عبد الناصر صالح
مدائن الحضور والغياب

وزارة الثقافة

بيت الشعر

رام الله - فلسطين

هاتف: ٢٤٠٦٩٥٦ * ٢٤٠٦٩٥٧

فاكس: ٢٤٠٦٩٥٥

ping@ping-palestine.org
www.ping-palestine.org

لوحه الغلاف: Ilona Wellmann

نشر هذا الكتاب بالتعاون مع اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والثقافة والعلوم
و بدعم من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)

"إلى مدائن تسكنني بغيابها"

البدويّ

لا وقتَ للعنابِ كي يشتطّ في النسيان،
فلتكتب قصيدتك الجديدة أيها البدويُّ
ولتخلع هواجسك القديمة،
والمراثي الرثة البلهاء فوق ضريحك الوهميِّ
نادتك المدائنُ:
أهلها المتسلّقون جراحهم
وعيونهم ثكلى تُلول كالأرامل فوق شرفات
البيوت،
مآذنُ الله المباحةُ تستجيرُ فلا تجارُ
كأن أنصاب الظلام / الجهل قد عادت

لتغرس جاهليتها بيثرب،

والمغول تترسوا خلف القلاع

وأحرقوا قصر الخليفة

من سيخطب، بعد هذا اليوم، في قصر الخليفة؟

من سيقراً شعره لينال جائزة الخليفة؟

من سيظفر بالمشانق أو سينعم بالخراج؟

فلأي موت تنتمي؟

يا لعنة الآتين من إرث الهزائم،

لا يجيء سوى السؤال المرّ وسط خرائب الأعوام

فالأساء غائبة،

وأبطال الرواية شوها ووجه المسيح

ولو ثوا قدسية العذراء،

كي تبقى النجوم رهينة الضوء المراوغ،

والسباء رهينة الغربان

والبرق المزيّف،

أي موت يصطفيك لكي تؤرّخ للقيامة

أو تعيد الروح للجسد /

الخطيئة؟

حولك المدن الغريقة والشظايا،

واشتعالات الندى،

وعراقة الأمواج

فاخرج من تفاصيل الغواية

كي ينأ النحل،

واترك للملائكة الصغار نوافذ الفرح المثابر

كيف تنجو من ثلوج شتاتك العبيّ،

أو تحنو على الأطلال مثل شواهد الموتى

وتسقط في انتظار الغائبين؟

لتغرس جاهليتها بيثرب،

والمغول تمترسوا خلف القلاع

وأحرقوا قصر الخليفة

من سيخطب، بعد هذا اليوم، في قصر الخليفة؟

من سيقراً شعره لينال جائزة الخليفة؟

من سيظفر بالمشانق أو سينعم بالخراج؟

فلأي موت تنتمي؟

يا لعنة الآتين من إرث الهزائم،

لا يجيء سوى السؤال المرّ وسط خرائب الأعوام

فالأساء غائبة،

وأبطال الرواية شوهاوا وجه المسيح

ولو ثوا قدسية العذراء،

كي تبقى النجوم رهينة الضوء المراوغ،

والسقاء رهينة الغربان

والبرق المزيّف،

أي موت يصطفيك لكي تؤرّخ للقيامة

أو تعيد الروح للجسد /

الخطيئة؟

حولك المدن الغريقة والشظايا،

واشتعالات الندى،

وعراقة الأمواج

فاخرج من تفاصيل الغواية

كي ينام النحل،

واترك للملائكة الصغار نوافذ الفرح المثابر

كيف تنجو من ثلوج شتائك العبثي،

أو تحنو على الأطلال مثل شواهد الموتى

وتسقط في انتظار الغائبين؟

لا وقت للعناب كي ينعى بنادق من مَضوا

ووجوه من يتهيأون لموتهم

فاملاً ترابك من رحيقِ العمرِ

واعرُجْ بالقرى لمطالعِ الأفقِ الهلاميِّ /

الخيانةُ أدمنت لغةَ الخطابِ

وأخرجت بحّارة الصحراء من فصلِ التفاوضِ،

حول حقِّ الثدي في التكوين

فلترسّم خريطتكِ / الملاءة

فوق سطحِ الأرضِ،

مثل عباءةٍ خضراءٍ يُلقِيها الإله

على سفوحِ الليلِ، كي تخضّرَ

واكتبَ عن سلاّاتِ المدائنِ،

برُعمِ الحنّاءِ في أحشائها

وعلى أرائكها / الخمائِلِ،

وقّع الدوريُّ رقصتهُ

وأسرجتِ القوافلُ خيلها

فاحمِلْ صليبكِ،

لستَ موسى كي تشقَّ عصاكِ بحراً

أو ترى عينيكِ في مرآةٍ من سلبوا حريرَ يديكِ

في زمنِ الهوى العبريِّ.

فلأَيِّ موتٍ تنتمي؟

ولأَيِّ ذاكرةٍ سترجعُ حين يدهمك الضبابُ

وتستجير بهائكِ الوثنيِّ؟

* * *

بين الموتِ والأعراسِ فاصلةٌ

وأعيادِ ستطفئِ حرقتي

مُتسرّبلاً بروائحِ الشهداءِ

أصعدُ

لا العواصفُ أنكرتني

لا خيامُ الراحلين،

ولا الينابيعُ التي نسيْتُ ملامحها

* * *

فلأبي صوتٍ تنتمي

حيثُ الحذاءُ يرنُ فوقَ سفوحكُ التعبى

ولا أقمارَ ترعى حاصدي قمح البراءةِ

في سنيّ الشكلِ ..؟

صوتي، إذن، لا ينتمي للخائفينُ

البائعينِ جلودهم

والحاسرينِ رؤوسهمُ

والجالسينِ القُرفصاءِ أمامِ أعتاب الخليفة

من ذا سيجرؤ، بعد هذا اليوم، أن يرثي الخليفة؟

من ذا سيجمَعُ ما تناثر، في الهواءِ الرطبِ،

من حُطْبِ الخليفة؟

* * *

لا وقتَ للبدويّ كي يلقي قصيدته

أمامَ الخيلِ والوديانِ..

لا وقتَ لي لأنامَ ملءَ سريري

وأغطّ في النسيانِ

سأعدُّ مرثاتي

أنا البدويّ سرحتُ النجومَ على مناديلي،

وروّضتُ الذئبَ أليفةً لقبائلٍ رحلتُ

وأخرى شاغلتها الريحُ عن صلصالها..

* * *

مُتأبطاً سيفي

سأصعدُ من عظامِ الميتين،

ومن تجاعيدِ الخيامِ وشهقةِ الأنساعِ،

لا العواصفُ أنكرتني

لا خيامُ الراحلين،

ولا الينابيعُ التي نسيَتْ ملامحها

* * *

فلأبي صوتٍ تنتمي

حيث الحذاءُ يرنُ فوق سفوحكُ التعبى

ولا أقمارَ ترعى حاصدي قمح البراءة

في سنيّ الشكل ..؟

صوتي، إذن، لا ينتمي للخائفين

البائعين جلودهم

والحاسرين رؤوسهم

والجالسين القرفصاء أمام أعتاب الخليفة

من ذا سيجرؤ، بعد هذا اليوم، أن يرثي الخليفة؟

من ذا سيجمَع ما تناثر، في الهواءِ الرطب،

من خطبِ الخليفة؟

* * *

لا وقتَ للبدويّ كي يلقي قصيدته

أمامَ الخيلِ والوديان..

لا وقتَ لي لأنامَ ملءَ سريري

وأغطّ في النسيان

سأعدُّ مرثاتي

أنا البدويُّ سرّحتُ النجومَ على مناديلي،

وروّضتُ الذئبَ أليفةً لقبائلٍ رحلت

وأخرى شاغلَّتْها الریحُ عن صلصالها..

* * *

مُتأبّطاً سيفي

سأصعدُ من عظامِ الميتين،

ومن تجاعيدِ الخيامِ وشهقةِ الأنساغ،

مُنحازاً لإيقاع النواقيسِ الجريحةِ

أنتمي لحقيقتي المثلى ..

أرَمُّ سيرةَ الشجرِ المسجى في العراءِ

بلا مدائحَ كي يمرَّ دمي

وأعيدَ ترتيبَ الخريطةِ من بدايتها إلى عامِ الفجيرةِ ..

من هنا مرَّ الغزاةُ

بناقلاتِ جنودهم،

والفاتحون

العابثون

سلالةُ الإفرنجِ /

مملكةُ المجوسِ /

الحالمونَ بغايةِ الإسمنتِ

والمتهافتون على الموائدِ والأماسي

القابضونَ على الجراحِ /

الباحثون عن النبوءةِ في سراديبِ المتاهةِ /

تحتَ أعوادِ المشانقِ /

من هنا مرَّ الغزاةُ

ولم يمرّوا ..

لكأنها كشفت براقعها النجومُ

لتُبصرَ الأشياءَ واضحةً،

وتوغَلَ في النشيدِ المستحيلِ

هدىً لفجرِ حطِّ خيمته

وأسبغَ لونه الأزليّ

فوقِ منابعِ الذكرى

فأيّ منابرٍ للحلمِ أصددُ؟

أي بحرٍ سوف يحملني على موجِ الصبابةِ

كي يهزَّ إليّ جذعَ الماءِ؟

فالأسماءُ حاضرةٌ،

مُنحازاً لإيقاع النواقيسِ الجريحةِ

أنتمي لحقيقتي المثلَى ..

أرَمُّ سيرةَ الشجرِ المسجَى في العراءِ

بلا مدائحَ كي يمرَّ دمي

وأعيدَ ترتيبَ الخريطة من بدايتها إلى عامِ الفجيرةِ ..

من هنا مرَّ الغزاةُ

بناقلات جنودهم،

والفاتحون

العابثون

سلالةُ الإفرنجِ /

مملكةُ المجوسِ /

الحالمونَ بغايةِ الإسمنتِ

والمتهافتون على الموائد والأماسي

القابضونَ على الجراحِ /

الباحثون عن النبوءةِ في سرايبِ المتاهةِ /

تحتَ أعوادِ المشانقِ /

من هنا مرَّ الغزاةُ

ولم يَمروا ..

لكأننا كشفت براقعها النجومُ

لتُبصرَ الأشياءَ واضحةً،

وتوغَلَ في النشيدِ المستحيلِ

هدىً لفجرِ حطِّ خيمته

وأسبغَ لونه الأزليَّ

فوقِ منابعِ الذكرى

فأيّ منابرٍ للحلمِ أصعدُ؟

أي بحرٍ سوف يحملني على موجِ الصبابةِ

كي يهزَّ إليَّ جذعَ الماءِ؟

فالأسماءُ حاضرةٌ،

وأجراُسُ المسرّة في أعالي السطحِ

ترُفَعُ للنخيلِ غناءهُ الجبليّ،

تهبُّ فوق شطآنِ الولادةِ

كي ترتل ما تيسر من مواجِدِها الدفيئةِ

كنت أصرخُ تحت عرشِ الريحِ،

يا بحارة الصحراءِ:

قلبي حارس لنشيدكم

وأنين صهوتكم

وطُهرِ صلاتكم

فلتذكروا البدويّ

لا الأنواء تجرُفه

ولا ليلُ الدروبِ القارسُ النظراتِ

يبطئُ شمسَ طلعتيه،

أنا البدويّ،

لم أسجدُ لطاغيةِ

ولم أجتَرَ قافيتي على سُجفِ الكلامِ

لي كلُّ ما في الأرض من شجر الصلاةِ،

فلن تضيع الآن من لغتي القصيدة

حكمةُ الأنهار تحرسُها /

وتحفظُ ثديها المخصابَ من قلق الخُصوبةِ

مُثقلٌ برذاذ أسئلتي

أنا البدويّ،

قد سكنتُ بلادَ الله خاصرتي

وما أودى بي النسيانُ.

المائعيّ

لُنْتَمَّ أَوَّلَ شَهْقَةٍ فِي صَمْتِنَا الْعَلَنِيِّ؟

بَرْقُ طَائِشٍ يَأْتِي

إِلَى حَيْثُ انْبِلَاجِ الدَّمْعِ

تَنْكَفِي الْمَصَابِيحُ الْقَصِيَّةُ،

تَفْقِدُ الرَّؤْيَا عِبَاءَهَا

وَلَا أَمْطَارَ تَسْتُرُ عَوْرَةَ الْمَنْفَى

وَلَا شَجَرٌ يَغَادِرُ طَمِي مَنْبِيهِ

فَأَسْتَجِدِي سَمَاءً لَسْتُ أَعْرِفُهَا

كَأَنِّي مَا فُتِنْتُ بِبَرْقِهَا الشَّمْعِيِّ

أَوْ سَكَنْتُ دَمِي..

عَبْنَا أَبَدُ رَقِصَةَ الْمَوْتِ الَّتِي مَجْتَا حُنِي

عَبْنَا أُزِيلُ مَخَاوِفِي عَنِ مَرْقَدِ الْعُمَرِ الَّذِي يَدْنُو

فَمَا جَدَوِي مُغَازَلَةَ السَّرَابِ إِذَا تَابَّطَنِي الرَّدَى؟

* * *

أَمْضِي إِلَى حَيْثُ انْتِصَافِ اللَّيْلِ

يُسَلِّمُنِي الْخَرِيفُ لِيَاقَةَ الْحُمَى،

وَيَحْمِلُنِي الصَّهِيلُ عَلَى مِدَادِ الْبَرْقِ أَسْئَلَةً

تُبَاغِتُ بَوْحَهَا،

فِي الْجَرَحِ مُتَّسِعٌ لِنَايِ غَنَائِكَ الْمَذْبُوحِ

لِلْوَجْهِ الَّذِي افْتَضَّوْا بَكَارَتَهُ،

فَمَا نَفَعُ الْخِطَابِ الْمُرِّ

إِنْ غَابَ الْحَوَارِيُّونَ،

وَاحْتَفَلَ الْغُزَاةُ بِنَارِهِمْ؟

كَمْ غَيْمَةً مَرَّتْ عَلَى أَشْلَانِنَا

سأقول للشجر المحايد: خذ دمي

لفضاء ما أتلوه،

وما أتلوه سحرٌ

لا تُفارقني..

بكارهٍ عمرنا تمضي

فما جدوى النريف الوغد

إن لفظت ملاءتها الكروم؟

سئمت من بوحٍ يعرِّبُ إذ توضأت الخيول

سئمت من لصٍّ تسلح بالنزاهة

ليتني المائيُّ،

أملك ما اشتهيت من المواجد

إن تحجرت اللغات وشقَّ وجداني الجنون؟

صعدتُ،

لا وهما أرى

لا أغنياتٍ تعشق التأويل

أين أحبتي

وبكارهٍ العمر الذي يمضي على وقع الممالك؟

أين ناصيةُ البلاغة؟

أنجبُ المعنى على شطآنها وتعيد لي لوني

صعدتُ،

سماؤنا عطشى

فلا تكتم غيابك عند مفترق الأسي

لا يرغب المائيُّ عزلته

إذا شاخ الربيعُ وأحجمت عنه السواقي

مُثقلٌ صوتي بأنغام التحسُّر

كيف أعرجُ لانتشال الأخصر الملكيِّ

من حِمِّ المشانق؟

من أتى بالنارِ آلهةً

وَمَنْ بَاعَ الْقَبَائِلَ مُهْرَةَ الرَّعْدِ الْمُدْمِدِمِ؟

لَيْسَ وَهَمَّا أَنْ كَتَبْتُ مَآثِرَ الشُّعْرَاءِ

وَالشُّهَدَاءِ

وَالوَطَنِ الرَّمَادِيِّ الَّذِي يَتَعَلَّمُ الْإِنْشَادَ،

بَيْنَ جَنَازَتَيْنِ

صَعِدْتُ،

أَسْلَمَنِي الْحَرِيفُ لِعُزْلَتِي فِي التِّيهِ

حَاوَزْتُ السَّمَاءَ

شَوَاهِدَ الْقَتْلِ

وَزَهَرَ الْجُلْنَارُ عَلَى الرَّخَامِ

وَمَا فَتَحْتُ نَوَافِذِي لِمَدَائِحِ الْقَبْرِ الْمَكَيَّفِ

أَوْ أَرَقْتُ عَلَى مِدَادِ قُصُورِهِمْ لُغْتِي

فَأَيُّ مَدَائِحٍ لِلْجُوعِ أَكْتُبُ؟

مَنْ أَتَى بِالْمَوْتِ مَمْلُكَةً؟

وَمَا جَدَوِي الْهَرُوبِ / الصَّمْتِ

إِنْ زُهِقَتْ صَلَاةُ الْإِسْتِغَاثَةِ؟

لِيَتَنِي الْمَائِيُّ

أَرْفُلُ بِالنَّدَى وَالرَّيْحِ وَالطَّيْرِ الْعَفِيِّ

وَمَنْ تَوَارَى خَلْفَ دَمْعَتِهِ

لِيَرُسَمَ صُورَةً مَنْسِيَةً لِلْبَحْرِ.

حالاتُ البطار العاشقة

فوق الرملِ
ترسمُ ظلّها المحفوفَ بالرغباتِ
تنثرُ نبضها
فأشمّ رائحةً تهددُ نبضي المُلتاعَ
أطلقُ رغبتِي
وأدقُّ أجراساً لها وقعُ القداسةِ حين تأتي..
قلبي على الشيطانِ يحرس حلمها
وربيعَ فرحتها
فتكتملُ القصيدةُ
يقفز العبقُّ المخبأ في الضلوع،
الشمسُ تلبسُ تاجها
وتفكّ قيدَ حنينها للبحر والأشجارِ
مسرعةً تمرّ كخطوتي
لتضيءَ أجنحةَ الحروفِ وغابةَ الكلمات

للبحرِ أخيلةٌ وهذا الموجُ أزرقُ
غيمةٌ غسلتُ صفائرها
وبحارونَ يحتفلونَ
رائحةٌ تجيء من المدارات البعيدة
شاطيءُ يرنو لأغنيةٍ
وأطفالٌ يحثون الخطى
في البحرِ..

كم في البحرِ من صدفٍ
وأسمالكِ تزيّن طقسها في الماءِ
وامرأةٌ تشيّد معبداً للعشيقِ

مسرعةً تمرّ كلهفتي عند اللقاء

كلهفة العشاق ينتظرون ليل جنونهم

لا شمس إلا وجهها

لا نسمة تأتي مع الأمواج

تعبّر جذب أيامي

سوى مطر الجدائل..

كنت أسكن نارها

وبراعم الرمان في دمها المؤلّه

أنتشي بندى يلامس خضرة العينين

ترمقني بنظرة وجدها..

وأسائل الغيم المكّدس عن جوانحها

فيسبقني صدى صوتي

لموعدنا الذي قد كان

أيّ قصيدة ستعيد موعدّها

الذي قد كان؟

أيّ براعة ستضيء جمر الخوف والصّبوات؟

أذكرها تجيء بثوبها الريفّي

يَعْمُر صدرها ألق الأنوثة،

تستفز أياثل الغابات

حين تطير بين ظلالها

وتهز جذع العمر،

تسقط صورة لربيعها الأبديّ

أذكرها تراقص موجة

فتحت ذراعها كعاشقة

أمام البحر..

أذكرها

تجنّف دمعاها الملكيّ

عائدة إلى عذرية الزيتون،

كيف أردُّ نبض القلب حين يفيض رقراقاً إلى لغتي
فيأتلّفُ الكلام؟

يممت وجهي نحوها

وأضأت ليلَ قصيدي من فيض نظرتها

لكأن بي عطش التراب لخطوها

سميتها عمري المؤجل

بوح ذاكرتي الخصبية

كلما جفّ السحاب رأيتني مطراً على شباكها

مطراً يدغدغ حلمها بفراش أغنيتي

ويمسح صورة الجرح القديم على الضفاف

هوذا فضاء قصيدي؛

صوتي الذي يمتد من وجعي إلى زمن البشارة

حاملاً لغة البكارة

كلما خلعت ظباء الحي نضل الخوف عن وجنتها

أدركت أنك سوسنُ العمر الذي

يلتف حول أصابعي

ويعيدني لبراءتي الأولى

لعشبِ صلاتي الأولى

ودالية يراقصها خشوعُ الناي

كم قلت: وجهك مبتغاي

كم قلت: أكتبُ

ثم تسبقني خطاي

هل قلت شيئاً غير ما لفظته أنفاسي

أمام البحرِ

فانبجست مزاميرُ الصبابة

هل حفظت العهد حين رميتُ

غرة شعركِ المسدول،

بالسمك الملونِ

سَلِمَتْ يَمِينُكَ
"أصوات"

الصوت الأول:

سَلِمَتْ يَمِينُكَ

سَلِمَتْ زَهْرَةُ عَمْرُكَ إِذْ تَبَدُّ

دَوْرَتُهَا

سَلِمَتْ عَيْنُكَ

وَالصَّوْتُ الصَّارِخُ مَلءَ فَرَاغِ

الكَوْنِ،

وَوَثَبْتُكَ النُّبُوَّةُ حِينَ تَسَدُّ

حَجْرًا

فِي مَرْمَى الْقَتْلَةِ

أم أرقت مساءك الطلّي

فوق يباب صدري؟

في البحر أخيلة

وبحارّ يزين طقسه المائي

وامرأة على شباك معبدها

استقام الوزن

واكتملت قصيدة.

وتَهزُّ شباكَ زناديقِ العصرِ،

تطارِدُهُم..

تُشعلُ غَضَبِكَ،

يرتَبكونَ

فتبقى نارُكَ مشتعلةً.

الصوت الثاني:

سَلِمْتَ كوفيتُكَ السمرَاءُ ونورُ

جيينك،

أيُّ صبيٍّ أنت الطالعُ من عَبَقِ

الجرحِ

وليلِ الخيمةِ والأشواكِ؟!!

أيُّ صبيٍّ أنت الصاعدُ من جمرِ

الغربةِ

والأسلاكِ؟!!

أيُّ صبيٍّ أنت؟!!

أيُّ صبيٍّ أنت؟!!

الصوت الثالث:

تكبُرُ قبلَ أوانك

ترسمُ في دفترِ أيامك

وجهَ حبيبتك الأولى

فيفوحُ عبيرُ جدائلها

وبريقُ الفرحِ الساهرِ في

الأهدابِ.

تكبُرُ قبلَ أوانك

تحفظُ كلَّ دروسك غيباً

لا تخطئِ في الجمعِ /

الطرح / القسمة

والإعراب.

تُتقن جغرافية الوطن وتاريخ

الأنساب.

الصوت الرابع:

أعددت لهم ما استطعت من

الحكمة

ورباط الخيل..

حجارتك المثل

دمك الحنائي

ومقلاعك

علماً في كفك لا تتقاذفه الأنواء

وذاكرة تحفظ في قلبك

كُل وصايا الشهداء.

الشاعر:

أيُّ صبيٍّ أنتَ القادمُ من حُضنِ الخيمةِ؟!!

أيُّ ملاكٍ؟!!

سَلِمْتَ نظراتك ثاقبةً تأتي

سَلِمْتَ كفاكُ

غابت كلُّ وجوه الكفرِ

وأشرقَ بالإيمانِ مُحيّاكُ.

أنتَ الرّائي، والزّمنُ المُبصرُ

أعمى..

صدقت رؤياكُ

صدقت رؤياكُ

صدقت رؤياكُ.

نوتتي هناك

وختتُ سُرَّتَها

فمن أسرى بوردهته إليّ؟

ومن أثار شهية الأنهار كي تشب الغزاة؟

جئتُ أسقي الغيمَ

في ألقِ الفضاء الرّخوِ

كي تنزلَ الأمطارُ؟

أعيّنتني تفاصيلُ السؤالِ؟

استوقفنتني الغانياتُ على صراطِ الجَلنارِ

أتينَ من وادي الهناءةِ،

قلنَ لي:

هيّء خيامك للرحيلِ

فقلتُ: تشرّبها بحارُ الله

قلنَ: أمامك الطوفانُ

فاسترسل

أسلمتُ قلبي للغزاةِ،

واستويتُ على رصيفِ العمرِ

كي أتفَسَّ الصّعداءِ

مثلَ عرائسِ الإنشادِ،

لم تأتِ المدينةُ

لم أجدُ صوتي هناكَ

ولا بجذع النخلِ أُلقيتُ العبارةَ،

قد بحثتُ فلم أجد رمحَ الرمايةِ

في زخارفها

ولا غجربةً أغويتُها بين الكرومِ،

بما أوتيتَ من سُنينَ النبيينَ

اتَّخِذْ من قلبكَ المجدافَ تنعمَ بالسلامةِ

قلت: كيف الماءُ لامسَ زورقي المكلومَ؟

كيف أصابني داءُ الرتابةِ؟

مسنِّي هلعٌ..

فأتممتُ النوافلَ تحتَ أطيافِ الزبرجدِ

فاجأتني نشوةُ الحناءِ في كفِّ الغزاةِ،

فاستحالَ الوقتُ نبضَ قطاً

يرفُّ على وجوهِ الغانياتِ،

مباركٌ هذا النَّعاسُ الحلوُّ

سربُ قطاً تناثرَ نبضُه الغسقيُّ

شرَّعتُ النوافذَ لاستضافتهِ،

وهيأتُ المدائحَ كي تلامسَ حسنهُ المجدولَ

كيف اللحظةُ النجلاءُ تحطفني؟

تجيءُ إليَّ باسقةً

كصوتِ غزالتِي في البِيدِ،

يعبرُ أخضرَ الشلالِ

يعبرُ

عسجديَّ السحرِ

يعبرُ،

هل فُتنتُ ببرقهِ

وأقمتُ في ساحِ الولايةِ قُبَّتِي

وأزحمتُ عن وجهي اللثامَ؟

مباركٌ هذا العناقُ الفدُّ

لم ألقِ السلاحَ لأستجيرَ بنظرةِ خرساءِ،

أو ألقيتُ أرغفتي لأقطفَ لمسةَ عمياءِ

قلبي خاشعٌ متصدِّعٌ من خشيةٍ..

أمضي إلى صُحفِي

لأعطي كل ذي حق فريضة،

وأظفر بالغزاة

ضاقت الغابات وانفرطت عقود العمر،

وارتجت عروش الغربة الحمقاء /

لما استحكمت حلقاتها الأعوام

قلت: تفيء

فانفرجت أسارير المدينة

عند منعطف الصباح،

فمن يعدُّ هودج الذكرى لتفطر النساء

على جموح الرغبة الدهشاء في؟

أرقت صهبائي

فلا عثرت يداي على القصيدة

أو عثرت على ملامح صورتي في التيه،

قاحلة حقول دمي

فمن يسقي الهواء - الشعر

كي تخضر أوردتي؟

متحصناً بقميصي الرعوي جئت

ألود باللغة - الشالة،

والنساء الساهمات الطرف

طاب مساؤهن،

أتين من وادي الهناء

لم أفارق ظلهن على حدود الجلنار،

ولا اعترت جسدي الوسوس

لم أبع وجعي،

وما قايتت مملكة لأصطاد الغزاة

فليكن..

وجعي تصادره البلاغة /

كلما آلت بين دمي ونسغ الأجدية،

تنزع النار العصية عريها

فبأي آلاءٍ أكذبُ؟

قد فردتُ دفاتري وبسطتُ أمعائي

لأعثرَ بالسؤال إذا نأت عني الإجابةُ،

مرةً أخرى سأعثرُ بالسؤالِ

فهل ستعتقني الإجابةُ

كي تنزّ خطيئتي؟

فبأي آلاءٍ أكذبُ؟

لم أكن يوماً سليل غوايةٍ

لأبيعَ في زمن العبيد أصابعي

أو عَشَّشْتُ أفعى الخيانة بين أكمامي..

فبأي آلاءٍ أكذبُ؟

ليتني وليت عمري شطر أغنيتي

فقد أسرى ببردته إليّ البحرُ

صرتُ رفيقَ رحلته

وتوأمَ موجهِ الصوفيِّ

أين غزالي لتضيءَ من حجرِ القصيدةِ

عرسها القاني

الغزاةُ ضالّتي /

أهدت إليّ صهيلها

فلفظتُ في سوق الندامةِ آخرَ الطلقاتِ /

لستُ مبيعاً خيل الأجانِبِ

كي ألممَ نكهةَ الأنثى،

فقد غسل الندى جفنيَّ

جاءتني المدينةُ،

وارتقى صوتي هناكُ

إلى منازلها..

وعلى جذوع النخل أَلْفَيْتَ العبارة.

لم يبتعد موتك المُشتهمة
(إلى فدوى طوقان)

والآخر ازدان بالشعرِ
يَقْطُرُ،

مُشْتَمِلاً باليفاعةِ

لا.. لست وحدك،

تمسّحين البياض على أفقٍ

يتراوح بين بكاءين /

خلف الجدارِ حُطى الراحلين،

فمن سيكفكفُ حزنَ السماءِ ودمعَ القصائدِ

حين تغيبُ المليكةُ؟

من سيجهزُ للموتِ رقصتهُ؟

شحت الغيمةُ المطريّةُ /

والموتُ يجلسُ في حالة القُرْفُصاءِ

فمن يرتدي الآن ثوبَ الفضيلةِ

في غابة الشعراءِ؟

وحدك الآن،

لا

لست وحدك،

تغتسلين بهاء العيونِ الأسيفةِ

إذ جفَّ ضرعُ ينبيعِ

وانشطرَ القلبُ نصفينِ؛

نصفٌ تلقفه الموتُ

حين استجارَ من الحلمِ بالدمعِ،

فاستنزفتهُ المتاهاتُ

والرّجفاتُ المدبّبةُ الرأسِ،

ومن سيهددُ وُجنتَ جرزيم، ينفُضُ غربتَهُ

حين تنأى الأغاني

ويبقى على عُرْيهِ اللَّحْنُ مُتَشَحًّا بِالذُّهُولِ؟

ومن سيحرّرُ ناصيةَ الأبيديّةِ

من صدأ الكلماتِ؟

الفصول تُخالِفُ ميقاتها

والطريق الذي عمّدتُهُ الأناشيدُ بالخطوِ

ينسى ملامحهُ /

.....

.....

وحدك الآن

/لا

لست وحدك..

حولك أسماؤهم

وامتدادُ روائِحِهِمْ في الترابِ،

وأصداؤُهُم

فهل نسيَ الوجهُ دُرّاقَهُ؟

.....

.....

سفرٌ مرّحليّ، إذا،

ومراسمٌ للدفنِ، أضرحةٌ تستلذُّ بأسرارها

في عباآتِ جرزيم،

يفجؤها عبءُ نفسِ السؤالِ

- إلى أين؟

يُبهرها عبءُ نفسِ الجوابِ

- الصدى ممعنٌ بالبياضِ،

فهلاً نفضتِ عن الثوبِ خيطَ الأفولِ

لنشربَ حتى الثمالةِ من لذّةِ القاعِ،

مُهْدِي الْعَصَافِيرِ أَلْوَانَهَا الْقُرْحِيَّةَ

نَغْفُو عَلَى حَنْطَةِ الْأَرْضِ سَبْعَ شَمُوسٍ،

نُسَيْجُ رَائِحَةِ الرَّاحِلِينَ

وَنُصْغِي لِأَنْفَاسِنَا فِي الرَّمَادِ..

وَنُسَلِّمُ رَاحَاتِنَا لِلرِّذَاذِ الْإِلَهِيِّ

(أَيُّ رِذَاذٍ يُغْذِّي أَصَابِعَنَا

ثُمَّ يُثْمِرُ مَعْجِزَةً بَعْدَ سَبْعِ شَمُوسٍ، وَمَوْتٍ؟)

نَصَلِّي لِنَخْلِتْنَا..

كِي تَدَلَّ عَلَيْنَا الرِّيَّاحُ

وَنَبْدَأُ مِنْ خُضْرَةِ السَّعْفِ؛

لَا مَوْتَ يُرْخِي حِمَاقَتَهُ

أَوْ جِدَارًا يَضْجُ بِأَقْفَالِهِ،

أَوْ أَحَاصِيرَ تَقْتَلَعُ الصَّوْتِ

مَا مِنْ أَيَّائِلٍ مَشْدُودَةٍ الْجِيدِ تَسْتُرُ أَوْجَاعَهَا..

الْقَصِيدَةُ أَوْحَتْ بِمَعْجِزَةٍ

لَا قَرَابِينَ فِيهَا..

وَلَا زَلْزَلَةَ

فَمَنْ يَفْتَحُ الْآنَ بَابَ الصَّبَاحِ عَلَى الْأَسْئَلَةِ؟

وَحَدِّكَ الْآنَ

لَا /

صَرَّتْ ضِرْعَ الْبَسَاتِينَ

أَشْجَارَهَا،

وَرَوَائِحَهَا الْمَلَكِيَّةَ

نَهَرَ عَصَافِيرَهَا الْمُتَرَقِّقَ،

صَرَّتْ غِنَاءَ الْحَوَاكِي

يَقْطُرُ،

حَوْلَ الْبُيُوتِ الْعَتِيقَةِ

لَمْ يَبْتَعُدْ صَوْتُكَ الْمُشْتَهَى عِنْدَ مَفْتَرَقِ الْعَمْرِ،

لم أبتعدُ عند حزني

ولم أتحسّسُ حمامةَ عينيكِ، بعدُ،

لكنني منذ ألقَت عليَّ السكينة بُردتها

في دوارِ الكتابةِ،

كنت أزخرِف غيم البدايات وحدي

فيرتجّ ماءً

يمرّر فوق التراب عيون تراتيله

كنت وحدي

أعاقِر ليل الأساطير تأتي على حين أغنيةٍ

أستضيفُ حقولاً

وأرضعُ من صدركِ الحُرِّ شَهْدَ الحليبِ المقدّسِ

يا أمُّ..

صدركِ لي وطني المعنويُّ..

فمن سيفجّر نهرَ العصافيرِ

أو سيزيح الستارةَ عن وطنٍ في وداعةٍ أنثى؟

.....

.....

وحدكِ الآنَ

يَزْهُو بعينيكِ ما تشتهيهِ الفراشةُ

من أُلْفَةِ الضَّوءِ

أو شهوةِ المستحيلِ.

يترققُ كالجدولِ الفذُّ صوتُكِ

يا امرأةً صوتُها عشقُها..

.....

.....

يجلسُ الموتُ في حالةِ القُرْفُصَاءِ

بيننا..

يقفُ الشَّعرُ في حالةِ الكبرياءِ.

مدائنُ الحُضُورِ والغِيَابِ

سَتَجِيءُ ذَاكِرَةٌ وَنَعْبُرُ ضِفَّةً أُخْرَى،

إِلَى جِهَةِ الْبِنْفَسِجِ

سَوْفَ نَعْبُرُ - مُثْقَلِينَ بِجُرْحِنَا الْمَنَسِيِّ -

صَوَّبَ الْبَحْرِ،

لَا ظِلٌّ سَيَحْرُسُنَا إِذَا انْحَرَفَ السَّبِيلُ بِنَا

وَأَجْهَضَ شَمْسَنَا - فِي عَزِّ صَبَوْتِهَا -

الْمَدَى الثَّلْجِيِّ،

مُفْفِرَةٌ مَأْذَنُ صَوْتِنَا،

جَرْدَاءُ إِلَّا مِنْ حِجَارَتِهَا

فَهَلْ يُجِدِي الْبِكَاءُ الْمُرُّ حِينَ تُصَادِرُ الْكَلِمَاتُ؟

حِينَ يَجْفُ فِي صَخَبِ الْمَتَاهَةِ

حَبْرُنَا النَّبَوِيِّ؟

هَا فَقَدْتُ عِبَاءَهَا الْفُصُولُ

وَقَطَّعْتُ أَثْدَاءَهَا

مُدُنُ،

شَرَبْنَا حَمْرَ كَوَثَرِهَا

وَهَيَّاْنَا لَوُجْهَتِهَا النَّهَارَ

فَكُنْ مَعِي..

وَقَفَ الْكَلَامُ عَلَى أَصَابِعِهِ

وَهَيَّاَ لِلرَّذَاذِ الْخُلُوبِ بِذَرْتِهِ،

خَلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ جَسَدِي قُلْسُوءَةً

مِنَ الطِّينِ الْبَهِيِّ

وَهَلْ نَجْمٌ بَيْنَ مِئْدَنَتَيْنِ

يُقْرَوْنِي السَّلَامَ

ورق عصفور من الألق المدجن

وانجالت طرُق مُغلقة

تنوء بحملها.

* * *

بيدي عصاي وبعض أغنيتي

فهل سيؤمّني نخل الجزيرة

إن نرقت دمي

وأطلقت العنان لآيتي في البحر؟

.. قلبي سفر جلة

وجرحي غائر

ومدائن الأبنوس تزحف نحو هاوية

وترقد للصدى

مدن / قيود / غربة / وسواثر بشرية

لا تكتسي باللحم

تُشهر عزيها للناظرين

فكنّ معي ..

في الجرح مُسع لهاويتين

من أثر النسيج

فلا مفر من الدجى لولادة المعنى

ولا لغة ستنجب للرؤى عينين

نؤوي تحت بردتها

وتؤنسنا إذا ما لفنا عدم.

* * *

سأقول للزمن الذي يمضي سدا:

"هيئ لنا من أمرنا رشدا"

عما قريب سوف يدركنا الحصى

والعمر يمضي مثلما تمضي المها لشراكها

والمركب الحشبي يصدّ يتمنا

شيئاً

فشيئاً

يبدأ الإعصارُ رحلتهُ وتختبئُ الحروفُ،

أكلما اقتربت خيولك من دمي أبكي؟

فما جدوى مبارزة الديوك

إذا اكتوينا في الهريع بثلج غربتنا؟

وما جدوى مصالحة الردى إن شاخت الرؤيا؟

كأنني كلما احترق الهواء على النوافذ

أستجيرُ بغيمة عرّجاء

تسقي ما تناثر من شظايا

وترفو ناينا المهذور

ما برحتُ تسائلني السوارعُ

عن خطي الآتين من ماضي يحاورُ نفسه

ويفكُ عزلتهُ على أنقاضِ ذاكرةٍ تئنُّ

فكنُ معي..

يجتاحنا ألقٌ وحناءُ

ورعشةٌ موجةٍ حبلى

فما جدوى التيمُّمِ إن ظمئنا؟

بيننا بحرٌ على سُجادهِ يترقرقُ المعنى

ويثمرُ،

كنُ معي

لي فيضُ أغنيةٍ تنزُّ

فمن يُقاسمُني انفجارَ البرقِ؟

ها لغتي تزخُّ جراحَ شهوتها

وتشعلُ في وداعةٍ راهبٍ قنديلها الزيتي

تعبرُ ضفّة الأرقِ الحثيثِ

إلى مواجدٍ تألفُ الترتيلَ

هل لا زلتَ مَشدوهاً بأفقِ زائفٍ؟

معراج الأذفة

أرى وجهها في مرايا الكلام
أرى وجهها في الرّحام
وحين يداهمني الشّعْرُ مُنتشياً بالفُجاءة
أمضي حثيثاً إلى صدرها العبقريّ،
أُدشّنُ أوسمةً للغناء
وأخيلةً للحنين المُخضّبِ،
أمضي حثيثاً إليها
لئلاّ على وَقَعِ أقدامها المَعمدانيّ
ينكسر القلبُ،
أه يا امرأةً من ندى الأُفحوانِ

أم أنّ جَمْهَرَةَ النُّحاةِ تَعَثُّوا
في فهمِ ذاكرةٍ تُرَمِّمُ فِتْنَةَ الغاباتِ؟
هاك دمي..

مُتَلَفِّعاً بِحرارةِ الأمطارِ

هاك دمي..

فاملأ حروفك ما استَطَعْتَ

سَيُنَجِبُ المعنى إذا انبَلَجَتْ عِبَاءُ شَمْسِنَا
وأذاب بَوْحُ نَشِيدِنَا غَبَشَ المَجْرَّةِ.

ترددتُ في وصف عينيك

كان المساء ثقيلاً..

ولما أزل

أتوجس رائحة الطيب فوق الجدار،

وحين يمرُّ وميضُ الستائر

حين تُطلُّ المرايا على شجرٍ في الحديقة،

أسمع ثرثرة الماءِ

رَجَع الصدى حين ينسدُّ اللحنُ،

والريحُ تنفثُ يا قوتها

تفرشينَ الوسادةَ والذكرياتِ الصدى

آه يا امرأةً من هديلِ الندى،

عارياً من ذنوبي أتيتُ

أنا العاشقُ الذائعُ الجرح،

قد غَسَلَ الثلجُ بين ضلوعي ثلاثينَ حزناً

ومملكةً للجنون..

ألوذُ براحتي في الصحارى

أقطعها دمعةً

دمعةً،

ومواجدَ غاريةِ الوقعِ

كامرأةٍ نَفَضَتْ ريشها

وأراني..

إذا جُنَّ ليلى طريحَ القصيدةِ

لي دهشةُ الأنبياءِ

ولي هداةُ البحرِ،

أمواجه الكستنائيةُ النَّارِ

تعجنُّ من ريقها عسلاً ونبذاً..

ولي - تحت جُنحِ الملداتِ - معصيةٌ

وهزائمٌ من فضةٍ ونيازكٌ نخبو،

مللتُ الهتافَ المُقنَّعَ في المهرجاناتِ .
مللتُ مقايضةَ الشَّعرِ بالعملِ المكتبيِّ
مللتُ ،
مللتُ
فلا الرِّغبةُ المستحيلَةُ عادت
إلى مُستقرِّ لها في الحنايا ،
ولا أَلْفَتَنِي الصَّحارى ،
أو أطفأت ظمئي المتجمِّرَ أنداؤها
صرتُ مُرتَهناً للتَّمامِ ،
لما يؤانسني الجنُّ في وادِ عبقرِ
أغدو مسجىً كحربِ
وقد طَفَحَ العمرُ والكأسُ ،
وابتعد الأصدقاءُ فرادى
إلى حيثُ أهواؤهم ..

ولي خلوَّةُ الملهمينَ وميراثهم
سوءُ الطالعِ الحاكمِ الألعبانُ
ولي قمرٌ أعزُّ الضوءِ
لي شجرٌ فارهُ كالوشايةِ
حول ضفافِ البيانِ .
مللتُ التراتيلَ
ترحفُ ذاهلةً في الخسارةِ ،
مثل نياشينِ قتلى الجنودِ
مللتُ تقاسيمِ حزني
مللتُ الصحارى وغرغرتي فوق كُثبانها ،
مللتُ صريرَ الكهوفِ
وسطوةَ سيفي على غمدهِ ،
والصعاليكِ يقتسمونَ الكؤوسَ
مللتُ حريقَ الخطابةِ يلفحني في الجنازاتِ .

إذا، سوف أبدأ من أول السّطرِ

أمضي وحيداً

إلى امرأةٍ لازورديةِ اللّمسِ،

أدلفُ من حُرقةِ الانتظارِ إلى خدرِها.

مولعٌ بالمرايا..

وبامرأةٍ لازورديةِ اللّمسِ

أمضي حثيثاً إلى لغزِ أحداقِها،

وأراني أعاقِرُ أغنيةً خارجَ السّربِ

مازلتُ أحلمُ،

كان المساءُ طويلاً

وقد غسلَ الثلجُ بين ضلوعي

ثلاثينَ حزناً

ومملكةً للجنون.

وجهُ الغزالة.. ماسُ جدائلها

(إلى فارسِ عودة)

ولدٌ معجزةٌ

عادَ من نومه تحت ظلِ الصفيحِ

وأودعَ أحلامه غيمةً،

وعصافيرَ تعبرُ صوبَ المخيمِ

رتّبَ أشياءه في الحقيبة؛

أقلامه

صورةَ الأهلِ،

رائحةَ القمحِ

واجبةَ المدرسيّ،

بشاشةَ وجهِ المعلّمِ أو عنفه حين يغضبُ

رهبتَه حين يفشلُ في حلِّ أسئلة الامتحان،

وفرحته حين يمضي إلى الجائزة

* * *

ولدٌ معجزةٌ

يفتح الآن نافذة الشمسِ

حتى تضيءَ ذؤابتها أيكَةَ الصدرِ

يبعثُ أغنيةً للغزاةِ

وهي تجوب الزقاق على هدي أنفاسهِ

(يتذكرُ:

وجه الغزاةِ مُفتتحٌ لليراعاتِ

حين يجفُّ الكلام.

يسيل الهواءُ دماً صافياً)

يتهيأ للصحوِ

أي الدروبِ سيسلكها دمه؟

أي قبلةٍ ستفجرُ رأسَ الفتى

وتميطُ اللثامَ عن الجرحِ

(والجرحُ أوسعُ من دورة الأرضِ

والقلبُ أكبرُ من هُففة الغائبين؟)

يتهيأ للصحوِ

قال الفتى وهو ينفُصُ أعباءه:

ليس يأخذني النوم من يقظة السيفِ،

لا وقتَ للنومِ،

لا وقتَ للانتظارِ قليلاً لكي تعبر الحافلاتُ.

عقاربُ ساعتهِ سوف يدركها الوقتُ

والأصدقاء - يجيئون

يتجهون إلى أول العمرِ؛

راياتهم

والنشيْدُ المؤجلُ

والشجرُ النبعُ والقدسُ والعرسُ
والطفلُ يصعدُ أدراجَهُ الجاهزةً.

* * *

إنه الولد المتماثل في طلعة النجم
والوطن - الحلمُ ديدنُهُ

عائدٌ من فصول الشقاوة

ما أَلقت الحربُ أثقالها لينامُ

وما زال سرب الحمام

حزيناً على شرفاتِ النوافذِ

يجرسُ قلبَ المدينة،

يؤنسُ وحشتها

وهي تعبرُ أشرعةً فوق نَقعِ العواصفِ

أي متاريس يعبرها الطفلُ،

أي ميادينَ سوف يعانقُهُ رملها؟

ي طلح سيلمسُ أهدابه؟

ب أي زاوية سيعدُّ الكمين؟

راءى له ظلّه في الحدائق

سوتُ غزالتة،

وجهها المتألقُ،

ماسُ جدائلها

شكلُ أصحابه يقطفون الحجارة عن شجر البرق

- لم تكشف الريح أسرارها بعدُ

(فلينكسر خوفه بالغناء المضرّج بالشوق

ولينطلق صوته بالصهيل الذي يتوحّدُ)

أيلول شهرُ المخاضِ

وفاتحةٌ للبهاءِ الطليقِ ومثذنةُ الضائعين

فأي صلاةٍ يؤدي الفتى

قبل أن تبدأ الأرضُ زلزالها؟

